تجديد قراءة التراث

إثراء للغة

قراءة في كتاب التعليقات والنوادر لأبي علي الهجري

الدكتور محمد بن راضي الشريف

بسم الله الرحمن الرحيم

تجديد قراءة التراث إثراء للغة

قراءة الشعر في كتاب التعليقات والنوادر لأبي علي الهجري

الدكتور محمد بن راضي الشريف

إن المتأمل لمصادر تراثنا– خاصة في القرون الثلاثة الأولى –يجد أنها ثرية بشتى صنوف المعارف، ويمكننا القول إنها تحوي من الخبايا والخفايا الشيء الكثير القمين بالبحث والدرس، الذي سيكون في تجديد قراءته وتناوله من زوايا مختلفة وبأدوات متنوعة إثراء للغتنا العربية بل إثراء للعلم والمعرفة عامة في جوانب عدة من ثقافتنا العربية والإسلامية.

من المصادر المستحقة للاحتفاء وتكرار القراءة وتمثل ما ذهبنا إليه كتاب **التعليقات والنوادر** لأبي علي هارون بن زكريا الهجري الذي عاش في القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجريين، وهو بتحقيق الشيخ العلامة حمد الجاسر رحمه الله.

الكتاب غني كل الغنى؛ فهو في مجمله مصدر من مصادر التاريخ السياسي والاجتماعي والاقتصادي والديني، إضافة إلى احتوائه على كمٍّ وفير من المادة الشعرية التي تخدم التاريخ الأدبي واللغوي على كافة أصعدتهما، كما تخدم بمضامينها فروعا كثيرة من المعرفة.

وقد سأل أحد المهتمين الشيخ حمد الجاسر عن الكتاب الذي شدّه أكثر من غيره، ويعود إليه باستمرار. فكانت إجابة الشيخ أن الكتاب الذي شدّني وأعود إليه باستمرار هو كتاب **التعليقات والنوادر** عن أبي علي هارون بن زكريا الهجري .

لا يسعنا في هذه الورقة المحدودة طولا ووقتا أن نوفي جزءا يسيرا مما ذهبنا إليه حقه، وسأقتصر على التقاطات سريعة ولمح مهمة أرجو أن يكون من ورائها كبير فائدة فالمعتمد على المفيد، وليس على طول العرض والترديد. لذا سنقتصر في هذا الرصد على الشعر وسيكون لهذا الرصد ثلاث فوائد:

الفائدة الأولى:

قيمة هذا الشعر وخاصة ما ينسب منه للقرنين الثاني والثالث، الذي انصرفت عنه الكتب المؤرخة للأدب والدراسات التي قامت عليه لاحقا إلى رصد الشعر ونقده في مراكز القيادة والحضارة في الدولة الإسلامية في العراق ومصر والشام، فهناك شعر ينتمي لهذين القرنين انفرد به هذا الكتاب إضافة إلى أن هذا الكتاب قد دوّن لنا ما كانت تحتفظ به ذاكرة الرواة المهتمين من أهل المنطقة ولم يصل إلى الحواضر الأخرى.

من خلال هذا الشعر نستطيع أن نحسم بشكل نهائي جانبا مهما في قضية التشكيك في الشعر الجاهلي، وهو ما أثاره عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين رحمه الله، وكان هذا الجانب من الجوانب الوجيهة التي أثارتها القضية، وهو أن ما ينسب إلى الجاهليين من شعر لا يمثل الاختلاف بين اللهجات العربية في الجاهلية، فهو شعر كتب بلهجة واحدة، وأن الرواة هم الذين وضعوه ولم تحفظ الرواية الشفهية عبر الأجيال المتعاقبة الشعرَ الحقيقي الذي يمثل شعر الجاهلية. في الكتاب الذي بين أيدينا ما يرد هذا الزعم ويفنده، حيث نجد فيه شعرا مما قاله شعراء الجزيرة العربية في القرنين الثاني والثالث من الأعراب الذين هم امتداد قبائل الجاهلية في لغتهم وفي سكناهم وفي عاداتهم وتقاليدهم ولم يتغير شيء من أمر الجاهلية عندهم إلا الدخول في الدين الجديد الذي نجد مسحته واضحة في شعرهم. فكما وجدنا الشاعر الجاهلي يصف الأطلال ويذكر النؤي والأثافي نجد الشاعر الإسلامي يزيد على ذلك 'المسجد' وهو عبارة عن عدة حصيات في شكل نصف دائرة يضعها البدوي محرابا لصلاته، وهي ما نجده في أطلال البادية إلى وقتنا هذا بعد مسافة قصيرة من خروجنا إلى البوادي القريبة، يقول العلاء بن موسى الجهني:

أتعرف دارا بين رضم وأمهد لميٍّ تعفّت غير نيٍّ ومسجد[1]

ويقول زهير بن أحمد الحمّالي واصفا الطلل:

أتعرف أطلالا يقابلن ثهمدا وخيما عفا من أهله وتأبّدا
تأبّد واستنّت به درج الحصى وأقفر إلا أحجرا كنّ مسجدا[2]

إضافة إلى ما ذكرناه دوّن الهجري هذا الشعر مباشرة من أفواه الرواة الذين كان جلّهم من الأعراب، وليس حال الرواة هنا كحال الرواة في حواضر العراق حيث الاتهام بالنحل والانتحال في عامة الشعر المنسوب إلى أزمان ماضية بل وحاضرة في العصر العباسي، وقد انسحب هذا الاتهام إلى الشعر الجاهلي في عمومه سواء عند ابن سلام الجمحي قديما أو في خصوصه عند طه حسين حديثاً.

يورد الهجري أشعارا لشعراء من شتى أنحاء الجزيرة، فلا نجدها تخرج عما أتانا عما روي لنا من الشعر الجاهلي، ولا نجد ذلك الاختلاف في اللهجات ماثلا في شعرهم كما أراده المشككون في الشعر الجاهلي؛ فهذا الهجري يورد قصيدة طويلة تقع في تسعة وسبعين بيتا لحبش بن سعيد النهدي يذكر أنه من أهل وحفة القهر، والقهر جبال معروفة شرقي تثليث، منها قوله:

نفسي فداء عصابة سارت لكم لم يرقبوا الحق الصريح المردف
باتوا وبات دليلهم يهوي بهم وهمٌ يجوب به البلاد ويعسف

يهوي بأبيض محضه أعراقه عاري العظام من البضيع مخفف
نعم السحابة أوشمت في أرضكم نزلت بحاشية الجميع المؤلف
مطرت فأسبل حين أسبل ودقها بالمشرفية والتراس الرجّف
بالبيض مخلصة الصقال كأنها لمع البوارق في الحبيّ الأكلف[3]

ومن الشعر ذي القيمة العالية في كتاب الهجري الذي يؤيد ما ذهبنا إليه مطولات للشاعر عبد الله بن هبّة المرداسي السلمي من شعراء القرن الثالث الهجري، إذ يمدح أبا المغيرة المخزومي والي مكة لبني العباس بقصيدة تقع في ستة وثمانين بيتا نجده لا يخرج فيها عن عمود الشعر الجاهلي حيث الوقوف على الأطلال والبكاء في اثنين وعشرين بيتا،[4] ويمدح رجلا من بني هلال بقصيدة تقع في مائة وأربعة أبيات تستغرق المقدمة الغزلية منها ستة عشر بيتا، ونجده في قصيدة أخرى يصلح بها بين بني سليم وبني هلال، على شاكلة ما صنعه ممدوحا زهير بن أبي سلمى، ومنها نستشف بعض السمات للحياة القبلية في القرن الثالث لنرى أن القبلية كانت هي المهيمنة على المشهد الاجتماعي بنفوذها وبتلك الخصومات بين القبائل، فالشاعر يتخلص لموضوعه في البيت الثالث والعشرين ليتحدث عن المعاناة التي سببتها حروب قومه مع بني هلال ثم يعاتب الفريقين بترك الحكمة والاحتكام إلى السيف والجهل:

إذا ما جعلتم لحمة الحرب بينكم جحافل من ريساء شيب ومن مرد
وولّيتم السيف الحكومات بينكم وبعتم جسيم الرأي بالذهب الوغد
متى تلتقوا يوما بعشرين راية تباغون فيها كل حزب إلى بند
وخيل عليها الدارعين كأنهم ليوث الغضا غادين وفدا إلى وفد

ثم يحذرهم من مثيري الفتن الحريصين على استمرار العداوة والحروب، مذكرا بما بين القبيلتين من أواصر القرابة والمصاهرة:

وإن عامر قالت لكم في عتابها توالون حيًّا من سليم ذوي بعد
فعدّوا لهم كم غاية البعد بيننا ولا تحدثوا زهدا فلسنا على زهد
كلانا لهم عم وهم بعد إخوة فكم بين جور البعد في ذاك والقصد
ولا تقبلوا قول المحشّين بيننا يزيدون داب البين حرصا على الهد[5]

وإذا كان هناك من الشعراء المشهورين في القرنين الثاني والثالث في الحواضر المعروفة من يذكر وقوفه على الأطلال وليس ثمة طلل بل لعله لم يرَ طللا قط، وكذلك وصف الدمن والراحلة والمفاوز، فإن

في كتابنا هذا من شعر أهل البادية في هذين القرنين ما أنشئ أصالة لا تقليدا أو تكلفا، إذ هو بدوي قح لم تختلف حياته الاجتماعية والاقتصادية ونمط معيشته عن عرب الجاهلية كثيرا.

فانظر إلى هذا الشاعر واسمه حنبل العصمي من هوازن يبين في أبيات له عمق العلاقة بين العربي وإبله فهو يعشقها، لذا فهو يتذكرها ويتغزل بها كما يتغزل الحبيب بحبيبته، ويصف دمنتها وصفا دقيقا لا نجده عند من يتكلّف وصف الدمن من شعراء الحواضر، يقول راثيا لإبله بعد أن أصابها الهيام وهو مرض يصيب الإبل:

يقولون لا تجزع ولست بجازع — وإن عادني من ذكرهنّ ملال
كأن ذكيّ المسك ريح مراحها — إذا ضربته ديمة وطلال
يظلّ فقير القوم يحسب أنها — له قبل إمضاء العطاء حلال
لقد صادفت بالجزع من ثبل طاعنا — يدارك طعنا كلهن عجال
لقد كان في سلوان والبرق العلى — وفي السود عن أرض الهيام مجال
إذا أنشدت قالوا مخاض لحنبل — وناشدها حق لها وعيال
كأن الذي كانت له ثم فارقت — يعلّ بوقع النبل بعد نهال
إذا ما مشت مشي العذارى تخايلت — بما بين جنّاح وبين طحال[6]

وكما استطرد أبو ذؤيب الهذلي في بائيته واصفا رحلة النحال الشاقة لجني العسل لينتهي إلى القول بأن ريق حبيبته أحلى من هذا العسل، نجد الشاعر عمارة بن راشد الهذلي يطرق الدرب نفسه في قصيدة تقع في تسعة وأربعين بيتا متغزلا فيها بحبيبته نعم، إذ يستغرق وصف النحل والرحلة لجني عسله ثلاثة وعشرين بيتاً منها، فيذكر بأن صاحبته:

من اللاء يصبين القلوب كأنما — على ريقها فض الشهاد المذوّب
طرائف مما أحرز النحل وانتمى — به حيث يحميها حيود وألهب
وحيث التقى جمع القرون وأشعلت — شآبيب منها ثامرات وأوّب
أقام لها اليعسوب في متمنع — بحيث يزلّ الطائر المتقلّب
بزلاّلة تيه كأن صفاحها — مآويّ جلاها رفيق مؤدب
كأن غناء النحل في طهيانه — تجاوب أوتار ترن وتخصب
فلما تولت خمس عشرة حجة — ولم يأتها ماض ولا متهيّب
أتيح لها ثقف رقيق مؤدب — أخو سدر شزر من القوم شينب
خفيف رفيق حين يختال خيلة — يسير عليه في الحبال التذبذب
فأوثق عقد الحبل ثم انتحى لها — أهاويّ عن أمثالها كان ينكب
فما زال يهوي حبله فوق شاهق — وآخر حتى ظن أن سوف يقضب

وحتى دعا ويلا رفيقاه دعوة وقالا لذا من مصرع كان يجلب
وحتى دعا دعوى أبيه ولم يكن ليفرج عنه الهم أم ولا أب
وغامر حتى نالها متشبّث بليّ القوى مستعصما حين يضرب
فما نالها حتى تقطّع ريقه وحتى أفز النفس كرب مكرب
فصادفها بيض الشهاد كأنها ثياب نضيد سابري وقرقب
تمج نسيلا لا يراه مطالع فيعرض إلا ريقه يتحلب

إلى أن ينتهي إلى قوله:

فذلك مجدوحا يكون كأنه على ريقها بل ريقها منه أطيب[7]

وما أشبه الليلة بالبارحة فهذه فتاة من طيء تتزوج فزاريا ويحملها إلى دمشق على كره منها، كما حملت ميسون بنت بحدل الكلبي وقالت قصيدتها المشهورة، ولكن نهاية هذه مأساوية إذ ماتت كمدا في الشام، وقد سمع والدها بالقصيدة فأرسل أخاها ليردها ولكن المنية كانت أسرع منه، تقول:

عشية رد المازني جماله وقال ارحلي يا خلّتي قد أناليا
أيا أبتا أسألك بالله باره وقولا له مجنونة واربطانيا
لقد كنت من بين الغواني مليحة أزار ويؤتى بيتكم من جلاليا
أيا أبتا لم تبق بالقاع تربة ولا حجر إلا بكى لبكائيا
سيترككم من كان يزدار بيتنا ويهجركم أبناء عمي وخاليا
أمن أجل أثواب البطين طرحتني لقد قام أثواب البطين غواليا
فلا تأمنن الدهر بعدي كاعب أباها وإن فدّى وقال بخاليا
فعز على أمي وهان على أبي طلوعي الثنايا ثم شد حباليا
وعز على أمي وهان على أبي طلوعي الثنايا ثم لوثي خماريا
وتغبطني أختي ببردي ومطرفي فلا يبلها الرحمن فيما بلانيا
فسرنا هلالا ثم قال ألا انظري قرى الشام قد واجهتهن أماميا
فبالله يا رحال إن كان بيننا تقارب أرحام أويت لما بيا
فقل لأبي إن كان بالله مؤمنا يصلي ويرجو الحج إلا نعى ليا
لينقذني الرحمن من ملك جامع وإن لم أكن إلا عظاما بواليا
ويا أخويّ الرائحين عشية على قلص شقر يهجن البواكيا
لبرق على سلمى وأعلامها العلى أقر لعينيّ وأشفى لما بيا
من البارق الجنبيّ لو تعلمانه لأقللتما لومي ولم تعذلانيا[8]

وهذا الشاعر عبادة بن البراء الجعدي من شعراء القرن الثاني يطالعنا الهجري بقصيدة له تقع في ثمانية عشر بيتا يتحدث فيها عن الخمر واللهو على طريقة طرفة بن العبد في معلقته، يستهلها بقوله:

فإن تبت عن إسراف نفسي لم أتب عن اللهو ما ساق الثريا رقيبها
وشرب مصفاة ملاء زجاجها بأيمان فتيان كريم شريبها

لكنه رغم لهوه وشربه يمتلك مبادئ سامية في علاقاته الماجنة، يقول:

فلا أبتغي وصل الفتاة بخلتي أخاها ولا الأخرى بأني قريبها

فهو بالرغم من مجونه يدعي أنه كريم عفيف وما سوى ذلك فالله حسيبه:

وإن مت فانعيني لبيني ولا يقل كذبت وشرّ النادبات كذوبها
لعفة نفسي إن تعرّض مطمع وعزّتها إن كان شيء يريبها
وإن قلت سمح في الندى لم تكذّبي وأما تقى نفسي فربّي حسيبها[9]

الفائدة الثانية:

رصد اللفظ الفصيح المهمل في الفصحى المستعمل في العامية، إذ نجد هناك ألفاظا يتبادر إلى الذهن أنها مغرقة في العامية ولا صلة لها بالفصحى وتخص في استعمالها عوام الأعراب، فتجدها ماثلة أمامك في شعر فصيح احتفظت به ذاكرة هذه المصادر، إضافة إلى أن هناك ألفاظا فصحى تعد غريبة أو نادرة الاستعمال في الفصحى وهي من الألفاظ التي يبهم معناها الدقيق، ولا يزيل عنها إبهامها وإيهامها هذا إلا رصدها في استعمالها العامي، وسوف نجد في شعر هذه الفترة (القرنين الثاني والثالث) تعضيدا لما ذهبت إليه.

من الألفاظ الفصيحة المهملة الاستعمال في فصحانا المعاصرة المستعملة في عاميتنا الدارجة الفعل (يكعم) ويعني الرد والصد للمهاجم، إذ يقول الشخص لآخر يطلب منه المساعدة على شخص

ثالث يهاجمه أو يطالبه بدين (اكعمهعنّي)، أو يحكي عن نفسه فيقول (كعمته)، نجد ذلك في بيت لأبي الزكركر الشريدي السلمي من شعراء القرن الثالث من أبيات يرد بها على أبيات لشاعر آخر:

نسيت ليالي يكعم الكلب خوفنا ونارك كاب غير ذاك وقودها[10]

وكلمة (كابي) كذلك في البيت مستعملة في العامية للون الباهت.

ومن الألفاظ العامية المعروفة (هوّد) حيث تعني الهدوء والارتخاء، فيقال (هوّد الليل) إذا شارف على نهايته، و(هوّدت الريح) إذا سكنت والأطفال إذا ناموا وانقطع ضجيجهم، يقول الشاعر ضيدان العارضي:

كلما قلت عنا هودوا نوبه الحقوا سربة تسعين خيالي

ونجد الشاعر زهير بن أحمد الجمالي يصف شعر حبيبته فيقول:

كما مال عذقا مُطعم هجرية إذا حرّكت ريح ذرى النخل هوّدا[11]

ويطلق العوام على رعاة الإبل (رعيان الأباعر) وهو ما نجده عند شاعرنا السابق:

ألم ترني من أجل ليلى وتربها أسيّر في الركبان نضوي مفردا
وأنشد رعيـــان الأباعر بكرة هجانا وبكرا ذا علاطين أسودا[12]

وهناك نوع من المشية فيها تمايل وتمهّل يطلق عليها العوام (المداداة) فيقال: جاء فلان يدادي، وهذا ما نجده عند الشاعر سبّاق الباهلي واصفا ابن عمه:

تهـددني الرجال ولا يبالي ويجعـل ميله معهم عليّه
ويأتيـني بمصحفه يدادي ويخبا سيفه عند المريّه[13]

ومما يستخدم عند العامة (يقمح فلان) أي لم يظفر بمطلوبه، و(فلان قمّحني) أي قطعني ولم يعطني ما أملته منه، نجد ذلك في أبيات يذكر الهجري أنها لسلولي يفتخر فيها بالكرم في وقت الشدة:

إذا أسديّات النجوم تثاءبت من الليل عن أنيابها فهي كلّح
وعاد القرى عند الذي أين مثله وقد جعلت أيدي المشيرين تبلح
وجدت القرى فينا لمن يبتغي القرى وما طال المعروف فينا يقمّح[14]

أيضا تستوقفنا لفظة (تبلح) في البيت الثاني، فمن سياق البيت نفهم أن المعنى هنا يتضمن التقصير، فيتضح عندنا معنى كلمة (بلح) حيث أنه قاصر عن النضوج.

يحافظ العوام على ألفاظ أهملت في الفصحى لعدم استخدامها، من ذلك ما يتصل بمراحل نمو الحيوان، فمثلا الضأن يسمى صغيرها عند الولادة أطفال وإذا كبرت قليلا سميت رخال، وإذا ولدت فاسمها نعجة والنعجة بدورها لها مراحل عمرية يحكم كل مرحلة ظهور الأسنان فمن جذعة إلى ثنية إلى رباع إلى سداس إلى قارح إلى ضارس إلى ملاحص إلى درداء. يقول شاعر مري مخاطبا صاحبته خولة:

أيا خول إن واصلت بعدي فواصلي أغرّ كنصل الهندواني ماضيا
ولا تصلي يا خول راعي ثلّة يظل إلى حملانها الدعم رانيا
يثنّي الوصايا كلما مر غاديا رخالي! ألا لا تحلبوا عن رخاليا[15]

وكلمة (مرثعن) سمعتها عند العوام يصفون بها تزاحم الأشياء من أثاث أو موجودات تحتاج إلى شيء من الترتيب لكثرتها وتزاحمها، نجد ذلك في بيت يصف به شاعره المطر، فيقول:

سقى صوب الربيع بلاد سلمى بضاحي الوبل منهمر مرنّ
مطيع للجنوب إذا مرته مرمّ بالأباطح مرثعنّ
كأن مدامة صهباء صرف نصفّى بين باطية ودنّ[16]

كما نجد كلمة (يلوب) ومعناه المشي في حلقة مفرغة وكأنه نوع من الدوران، يقول الشاعر :

يلومونني في الحب لا زال منهم صد نازح عنه الحبيب يلوب[17]

وقول الآخر:

كأني من وجد على أم مسلم **صدٍ بين أحواض المياه يلوب**[18]

ومن المصادفات الطريفة أن نجد الكلمة مستعملة في التقنية الحديثة بالإنجليزية بمعنى دوران العنصر اللانهائي. كما تعني الأنشوطة، والدائرة الكهربائية.

وتتكرر كلمة (عمهوجة) وجمعها (عماهيج) في الشعر الشعبي كثيرا، وهي المرأة الطويلة الحسناء، فنجدها في أبيات شاعر نميري:

أجدّك شاقتك الديار البلاقع بذي الرمث حيث الشام فيه الدوافع
نعم فرزقت الصبر من بعد خولة وهل أمل إن فاضت العين راجع
بسرب عماهيج كأن عيونها عيون المها جيبت عليها البراقع[19]

وإذا كانت (عمهوجة) صفة إيجابية، فهناك صفة سلبية توصف بها المرأة الطويلة التي كأنها أنبوب، وهي (العصلاء) التي تجمع على (عصل)، يقول مساور بن صالح الذبياني مفديا حبيبته الجميلة بنساء لهن مثل هذه الصفات السلبية:

فداك قصار يا حبيب زعانف وعُصل طوال في النساء قباح
فأنت منى نفسي إذا كنت خاليا وفوق المنى لو كان فيك سماح[20]

ومن أسماء الأفعال الدالة على التأثر سلبا أو إيجابا عند العوام كلمة (أوه)، إذ نجدها بمعناها في البيتين:

وأوهٍ أما من لمّة منك هجرة بطيبة إلا حولها من أراقبه
وأوهٍ لذكراها إذا ما ذكرتها إذا غلبت مخلود صبري غالبه[21]

وتستعمل كلمة (الدنع) في العامية لوصف الرجل الدنيء الذي يطمع في نساء أقاربه أو جيرانه، نجد شاعرا أزديا يصف بهذه الكلمة شماريخ النخلة المائلة، فيقول:

أيا نخلة الجزع التي تم بينها لها منظر ترضى به العين سائغ
جناها جنى فوق الجنى أسبلت به شماريخ منها مستقل ودانع[22]

ذكر المحقق أنه قد كتب فوق كلمة (دانع) (مسترخ).

و(اللابة) معروفة عند أهل المدينة فهي جزء من جغرافيتها وحديث الغابة واللابة معروف مشهور خاصة في هذا الزمان، لكننا لو جمعناها لقلنا (لابات) بينما العامة يجمعونها على (لوب)، وهذا ما نجده عند شاعر جاهلي مخضرم يرثي قومه، فيقول:

تذكرا قد عفا منهم فمطلوب فالسفح من حرتي ميطان فاللوب[23]

كما وجدناه عند شاعر مخضرم نجده عند الشاعر ناهض الكلابي ممن أدرك القرن الثالث الهجري، إذ يقول:

وقد نزلوا النقيع ولابتيه فما نجّاهم لُوب النقيع[24]

و(الحزة) عند العامة تستخدم كثيرا للوقت إذ يقولون (ما هي حزة كذا) أو (ليتني في هذه الحزة)، نجدها في شعر لمحمد بن دحيم الثقفي:

ومن ذكره في كل حين وحزة حليف لقلبي لا يزال يحالفه[25]

وفي قول عمارة بن راشد الهذلي:

وإن هواها وارد كل حزة حمى من حمى قلبي فما منه صادر[26]

وكذلك كلمة (طاحت) في البيت الذي يليه، وطاح بمعنى سقط وهي المستخدمة في العامية:

ومن بالحشا من حبه ما لو إنه ببيضان طاحت من ذراه شناظفه[27]

و(الشحف) عند العوام السرعة وعادة ما يرتبط بالذكاة، يقال شحفها بالسكين، ونجد قريباً من هذا الاستعمال في قول شاعر عقيلي:

رَميّ بذكر من حبيب أصابه على النأي والهجران فالقلب شاحف[28]

ومن أسماء الأشياء المستعمل في عاميتنا القريبة (الخرص) بمعنى القرط إذ يقول الشاعر الشعبي:

يا ليتني له خرص وألا زمامي وقريّب من هرجته وأتوحّى

نجد (الخرص) بهذا المعنى في بيت للشاعر عمران بن مكنف العامري متغزلا:

فقد غنيت هند بها وهي طلّة ينيف بخرصيها عن الطوق جيدها[29]

والفعل (ناش) في العامية مستعمل بمعنى اللمس أو مجرد الاقتراب، نجده في بيت للشاعر مَضا القشيري مشبها دمعه بأغصان شجرة طرفاء حركت الريح أغصانها المثقلة بالطل ليلا فتقطر ماء، يقول:

لجوجٍ إذا لجّت بَكِيٍّ إذا بكتْ بكت فأدقّت في البكا وأجلّت
كما هتنت طرفاء ناشت غصونها جنوب وقد كانت من الليل طلت[30]

والتلبّخ في العاميّة يعني الادّهان بدواء ونحوه، ويسمون ما يوضع على الكدمة من دواء معجون (لبخة) ،ويقاربها لفظة تضمّخ، يقول العلاء بن موسى الجهني:

هداني إليها ريح مسك تلبّخت به في دخان المندليّ المقصّد[31]

وعندما نصف نساء بالضعف فإننا نقول (نساء ضعيفات)، بينما في العامية يقولون (ضعايف) وهو ما يوافق قول الشاعر مزاحم العقيلي:

تلعّب بي حبّيك حتى تشابهت عظامي وأعواد الشكاعى الضعايف[32]

والفعل (دزّ) في العامية تعني (دفع وأرسل)، نجدها في أرجوزة لشبيث السلمي، يقول فيها:

رش بماء أحمد بن مالك
ودزه ضمرة في المهالك
في جوف لصْبٍ لصب
المسالك[33]

وكلمة (مُراح) وتعني مكان الإبل الذي تبيت به وما زالت تستخدم في العاميّة بهذا المعنى، إذ نجد ذلك في مرثية حنبل العصمي لإبله، حيث يقول:

كأن ذكيّ المسك ريح مُراحِها إذا ضربته ديمة وطلال[34]

الفائدة الثالثة:

عبارة عن التقاطات صغيرة بيد أنها تحكي تجربة عميقة للشاعر، فالشاعر من خلالها يسجل خلاصة تجربة حياة، فهي عبارة عن مبادئ سامية ومكارم فاضلة، تلتقي فيها مكارم أخلاق العربي مع شرع الله الذي جاء لما فيه سعادة البشر أجمعين.

فهذا الشاعر محمد بن بشير الخارجي العدواني يمحض لنا تجربته التي يظهر أنه عانى فيها كثيرا من لواعج الشوق ونار الغرام، بما يكرّس أهميّة الحجاب، لأن الرجل مهما كان عقله راجحا رزينا، إلا أن نظرة واحدة يصيب منها كاعبا حسناء كفيلة بأن تسبي قلبه ولن ينفعه ثمة عقل وثقل، يقول الشاعر الذي يظهر أنه أصيب بسبب نظرة:

إني نظرت وما أبصرت من أحد ... يعتاده الشوق إلا بدوه النظر
يا أحسن الناس إلا أن نائلها ... قدما لمن يبتغي معروفها عسر
وإنما دلّها سحر لطالبها ... وإنما قلبها للمشتكي حجر
هل تذكرين كما لم ننس ذكركم ... وقد يدوّم وصل الخلّة الذكر
قولي وركبك قد مالت عمايمهم ... وقد سقى القوم كأس السكرة السفر
عوجي نخبّرك عن يوميّ عاذلنا ... وكل غيبة أيّام لها خبر
أبقت شجى لك لا ينسى وقادحة ... في أسود القلب لم يشعر بها بشر
جنّيّة أوّلها جنّ تعلمها ... رمي القلوب بنبل ما لها وتر
خود مبتلة ريّا معاصمها ... قدر الثياب فلا طول ولا قصر
بيضاء رقراقة تعشي إذا برزت ... كالبدر ليلة إحدى عشره القمر
إن هبّت الريح حنّت في وشائجها ... كما يجاوب عزف القينة الكبر
كأنها جؤذر حيران أخنسه ... بالبرق حيث يضحّي البرقة البقر[35]

وفي أبيات لعمارة بن عقيل بن بلال بن جرير الخطفي التميمي الشاعر يتعجب من تمسكه بالحياة وغرسه للنخل رغم بلوغه السبعين، ثم يروّض نفسه ويتأمل في حال الذين مضوا وأنه لا يختلف حاله عنهم إلا أنه قد أقام بعدهم قليلا، يقول:

عجبت لتغريسي نوى التمر بعدما ... طلعت من السبعين أو كدت أفعل
وأدركت ملء الأرض ناسا فأصبحوا ... كأهل خباء قوّضوا فتحمّلوا
وما نحن إلا مثلهم غير أننا ... أقمنا قليلا بعدهم وترحّلوا[36]

ويروي الهجري بيتين ينسبهما لعمرو بن معدي كرب الزبيدي يذكر الشيخ حمد الجاسر محقق الكتاب أنه لم يرهما في مصدر آخر، والذي استوقفني ليس تفرد الكتاب برواية البيتين بل مضمون هذين البيتين

إذ تأتي في السياق نفسه من الأبيات السابقة حيث المبادئ والمثل، فالبيتان ترجمة للمقولة العربية (إذا عز ابن عمك ذل) وما أحوجنا لهذا فكثير من ويلات واقعنا المعاصر ناشئة عن مجافاة هذه المقولة، حتى أصبحنا كما قال الشاعر:

قومي رؤوس كلهم أرأيت مزرعة البصل

يقول الزبيدي:

وكم ساد قبلي من زبيد فلم أكن لمن ساد قبلي ذا ضداد منافسا
وسدت فلم أفخر وذدت عن الحمى وأخرجت عنه إنسه والأبالسا[37]

وحاتم الطائي الذي تنصرف عند ذكره أذهاننا إلى أنه من أهل الوبر، يروي له الهجري أبياتا تثبت أن له من أهل المدر نصيب، إذ ينتقد ويلوم من يبالغون في حماية نخلهم ويمنعون تمره من الأضياف وعابري السبيل وذلك بتحظيره بأغصان السدر الشائكة، فيوصي بترك ثمر النخل حتى قبل أن ينضج أمام الأضياف، والقصيدة تعزز الصورة الجميلة المتأصلة في أذهاننا عن حاتم طيء بل تضيف إليها تفاصيل غاية في الروعة والجمال، ويذكر الشيخ الجاسر –رحمه الله– في الهامش متحدثا عن ديوان حاتم بتحقيق الدكتور عادل سليمان جمال أن المحقق أضاف إلى الديوان هذه القصيدة من كتاب الهجري، فالهجري ينفرد برواية هذه القصيدة ؛ لذا نجده يؤكد في مقدمة كلامه أنها لحاتم بإجماع الرواة، ويذكر من هؤلاء الرواة أبا الحمد رجل من بني حسن وأبا القاسم طاهر بن يحيى الحسيني نقلا عن ركّاض وماويّ، ومما يؤكد أنها لحاتم توافقها مع قاموسه حيث وصف البخيل وحرصه على ماله مهما قل، ثم يعقب ذلك بوصف الفتى الكريم.

يقول:

إذا أزّروا بالشوك أعجاز نخلهم رأيت عذاقي بينها ما تؤزر
فمن بينات اللؤم أحظار سدرة على جذعها يحمينها لا تغيّر
فلست بمؤنيه وأضياف أهله غراث إلى وقت يجد ويتمر
ولكنني مما أقول وإن زرى عليّ بذاك الكاشح المتقفر
كلوا ما به خضرا وصفرا ويانعا هنيئا وخير النفع ذو لا يكدّر
وشقي عليّ الجيب إن حيل بينكم وبين الذي فيه نطاق محظّر
ولا تغلقي يا أم مزنة إن أتى عليّ الأواتي والحوادث تقصر
شديد مصرّ الدرهمين كأنما إلى كفّه والعنق غلٌّ مسجّر
إذا فاته من ماله ربع دانق رأيت عليه وجهه يتمعّر

دقيق إلى الشف اللطيف كأنما أقيد له في ذلك الشف قيصر
وليس الفتى من يغلب البخل جوده ويعتزّ يسرى أمره المتعسّر
ولكنّما تدعو الفتى من نواله هنيء ومن يأتي به ليس ينزر
يعدّ لأعجاز الأمور إذا أتت قراها وإن شقّت عليه فيصبر
قذوف على الهول الشديد بنفسه إذا اعتنّ مغبرّ التنائف أزور[38]

وإلى حاتم آخر هو حاتم بن مدرك الحبشي من سليم من شعراء القرن الثاني الهجري، يطالعنا الهجري له بنقيضة تقع في ستة وثلاثين بيتا، مع شاعر مزني هو عبدالله بن أبي صبح ويذكر الهجري أنه بينهما نقائض، ويظهر لنا ذلك أن النقائض لم تقتصر على القرن الأول عند شعرائها المشهورين ولكنها تمتد إلى ما بعد ذلك، وهي مما يمليه طبيعة الحياة القبلية حيث التفاخر والتناحر والتخاصم، الذي مازال محتدما بين قبائلنا حتى عصرنا الحاضر مولدا نقائضا تعد من أبرز موضوعات الشعر الشعبي.

ويظهر لنا من قصيدة حاتم السلمي هذا المزاوجة بين المعاني الإسلامية وما عرفناه عند عرب الجاهلية، فهو يوجه القصيدة إلى أعيان مزينة ويطلب منهم أن يقولوا لابن أبي صبح:

وقولوا له: ما بال عقلك ناشئا وجهلك لمّا عدت ذا شيبة كهلا
كأنك لم تقرأ من الوحي سورة بأرض ولم تسمع بها ساعة تتلى
إذا ما التقينا عد ما كان بيننا من الحلف والإسلام واجتنب الجهلا
وإن غبت عنه ساعة قيل يفتري عليّ فلا أدري أأشتمه أم لا
أم أعرض عن عوراته فهو جاهل فيكفر إحساني ويحسبه ذلا
أم أشتم جيراني فأصبح مثله أعوذ بربّي أن أكون له مثلا
وتقتحم الأنساب من دون خندف كأنك تعطي دونهم باليد السفلى
كأنك لم تعلم أبا لك دونه بلى قد علمنا أن في خندف فضلا[39]

ثم يطلب أن يعقد لهما مجلس محاكمة يحضره آل الزبير وبنو هاشم وآل أبي بكر ويجلس فيه ذلفاء وجمل ليشهدوا جميعا تنفيذ الحكم في ابن أبي صبح. فيجيبه ابن أبي صبح مبتدئا بذكر الجميلتين ذلفاء وجمل، ثم ينقض بعد ذلك كلام السلمي، من ذلك قوله:

إليك فإني غافر لك ما مضى من الذنب إلا أن تحمّلنا حملا
وتلقي علينا جانبيك كليهما وتشرع في أعراضنا الجد والهزلا
وتعرض دون الجانبين فلا أرى لمثلك إلا أن أعرّضه نكلا
فإن كنت قد أبصرت من بعد جفوة فأهلا بما أحدثت من سلمنا أهلا

وما أن أحب الشر ما لم تجرّه عليّ جناتي أو أكون له نعلا
بل أصفح إجمالا وأدرأ سبة بأحسن ما تدرى وأدمله دملا
وأدفعه حتّى إذا حلّ ساحتي صليت بأذكى حرّه كل من يصلى
كأنك تشنأ أن فخرت بخندف كأنك لا ترضى طريقتك المثلى
كأنك لم تعلم أبا لك مثله ولا لأبيكم لا تكونوا له مثلا[40]

ومن المعروف أن لكل قبيلة وسماً خاصًّا تسم به إبلها ولهذه الوسوم أسماء معروفة عند أصحاب الإبل منها الحلقة والهلال والردعة والمطرق والباب والمشعاب، يطالعنا الهجري ببيتين لشاعر نميري يذكر فيها وسوم الإبل، ويعقب الهجري بعد ذلك بتوضيح لذلك، يقول النميري يذكر نعما بشق البحرين قريبا من البصرة:

ألا يا ابن جعد لو علمت بغرّة بدار لأنضيت المطيّ المخزّما
إلى نعم يرعى بتؤثور أهله مسطّعة أعناقه ومرقّما[41]

[42] يعقب الهجري فيقول: السطاع من السمة، جمع سطعة، تكون في طول العنق مقدار الإصبع، والعلاط : يكون وسط العنق مستديرا بأكثر العنق، سمة لبني حمّال من معاوية حزن من عبادة عقيل، والمرقّم : نقط ثلاث في الفخذ، مثل فرشة الكلب مثل الهقعة بأظفاره، وهي سمة بني ضبة.

هذه غرفة اغترفتها من هذا الكتاب الذي يزخر بكنوز جلّى تخدم كل فن، وما أكثر هذه الكنوز في إرثنا المكتوب والشفاهي، الذي لو درسناه في سياق واحد ونظرنا إليه نظرة من يدرك كل تفاصيل المشهد وفسيفسائه لأغنانا عما انصرفنا إليه وأشغلنا أنفسنا به من علوم وتاريخ غيرنا.

هذا جهد العجل المحب لهذا التراث، فقيمة ما عرضته من قيمة الثروة التي تكتنزها كتبنا التي من أعيانها كتاب الهجري هذا الذي كتب في المنطقة ودون ما جاء على ألسنة رواتها من غير تحريف ولا تصحيف.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

كتبه / الدكتور محمد بن راضي الشريف

المملكة العربية السعودية – جامعة الحدود الشمالية

عرعر – جوال 00966550050836

[1] – **التعليقات والنوادر، دراسة ومختارات،** لأبي علي هارون بن زكريا، ترتيب حمد الجاسر، 1992/1413، القسم الثاني، ص746.وقدر وردت اللفظة نفسها بالمعنى نفسه عند ابن الدمينة وذي الرمة وطريح الثقفي.

[2] – **التعليقات والنوادر،** القسم الثاني، ص625.

[3] – **التعليقات والنوادر،** القسم الثاني، ص588.

[4] – **التعليقات والنوادر،** القسم الثاني، ص712.

[5] – **التعليقات والنوادر،** القسم الثاني، ص721.

[6] – **التعليقات والنوادر،** القسم الثاني، ص611.

[7] – **التعليقات والنوادر،** القسم الثاني، ص752.

[8] – **التعليقات والنوادر،** القسم الثاني، ص663.

[9] – **التعليقات والنوادر،** القسم الثاني، ص690.

[10] – **التعليقات والنوادر،** القسم الثاني، ص635، وهي من الكعام وهو شيء يوضع على فم البعير الهائج لمنع أذاه. **لسان العرب** (كعم)

[11] – في **لسان العرب:** التهوّد : التوبة والرجوع.

[12] – **التعليقات والنوادر،** القسم الثاني، ص637

[13] – **التعليقات والنوادر،** القسم الثاني، ص646، وكلمة (المداداة) نجدها غير واضحة المعنى في القواميس.

[14] – **التعليقات والنوادر،** القسم الثاني، ص 657، يقمح

[15] – **التعليقات والنوادر،** القسم الثاني، ص667.

[16] – **التعليقات والنوادر،** القسم الثاني، ص669، وفي **لسان العرب**: ارْثَعَنَّ استرخى وكل مسترخ متساقط مُرْثَعِن.

[17] – **التعليقات والنوادر،** القسم الثاني، ص670.

[18] – **التعليقات والنوادر،** القسم الثاني، ص684، وفي لسان العرب:لابَ يَلُوبُ إِذا حامَ حول الماء من العطش.

[19] – **التعليقات، والنوادر** القسم الثاني، ص625، في لسان العرب:العَمْهَجُ الطويل من كل شيء

[20] – **التعليقات والنوادر،** القسم الثاني، ص846، وفي لسان العرب:العَصْلاء المرأَة اليابسة التي لا لحم عليها.

[21] – **التعليقات والنوادر،** القسم الثاني، ص675، وفي لسان العرب: أَوْهَ وآهِ كلها كلمة معناه التحزُّن.

[22] – **التعليقات والنوادر،** القسم الثاني، ص671.

[23] – **التعليقات والنوادر،** القسم الثاني، ص793.

[24] – **التعليقات والنوادر،** القسم الثاني، ص891، وفي **القاموس المحيط**: الحَرَّةُ كاللاَّبَةِ ج:لوب.

[25] – **التعليقات والنوادر،** القسم الثاني، ص826، وفي **لسان العرب**: الحَزَّة الساعة.

(26) – **التعليقات والنوادر**، القسم الثاني، ص753.

(27) – **التعليقات والنوادر**، القسم الثاني، ص 826.

(28) – **التعليقات والنوادر**، القسم الثاني، ص840.

(29) – **التعليقات والنوادر**، القسم الثاني، ص756، وفي **لسان العرب**: الخُرْصُ بالضم ويُكْسَرُ : حَلْقَةُ الذَّهَبِ والفِضَّةِ أو حَلْقَةُ القُرْطِ

(30) – **التعليقات والنوادر** القسم الثاني، ص852، في **لسان العرب**: ناشَه يَنُوشُه نَوْشا إِذا تَناوَلَه وأَخَذَه.

(31) – **التعليقات والنوادر** القسم الثاني، ص746، في **القاموس المحيط**: اللَّبيخَةُ: نافِجَةُ المِسْكِ، والتَّلَبُّخُ : التَّطَيُّبُ به.

(32) – **التعليقات والنوادر** القسم الثاني، ص842، وفي **كتاب العين**: رجلٌ ضعيفٌ وقوم ضُعَفاءُ ونسوة ضعيفات وضعائف.

(33) – **التعليقات والنوادر** القسم الثاني، ص971، في **لسان العرب**: الدَّزْرُ الدفع.

(34) – **التعليقات والنوادر** القسم الثاني، ص611. وفي لسان العرب : المراحُ (مادة بوأ، بضم الميم): المكان التي تبيت فيه الإبل، وانظر كذلك مادة (روح) ومادة (عطن) ومادة (فسح) ومادة (قرع). والمراح (مادة مرح في اللسان) بكسر الميم: موضع.

(35) – **التعليقات والنوادر**، القسم الثاني، ص 824.

(36) – **التعليقات والنوادر**، القسم الثاني، ص755.

(37) – **التعليقات والنوادر**، القسم الثاني، ص769.

(38) – **التعليقات والنوادر**، القسم الثاني، ص582.

(39) – **التعليقات والنوادر**، القسم الثاني، ص584.

(40) – **التعليقات والنوادر**، القسم الثاني، ص708

(41) – **التعليقات والنوادر**، القسم الثاني، ص901